إثراء
المعارف الرقمية

بريد الجمعـــة

بريد الجمعـــة

الجمعة ■ ٢٨ يونيو ٢٠٠٢ ■

يكتبه: عبدالوهاب مطاوع

رائحة الحب!

دفعتني للكتابة إليك رسالة «رائحة الورد» للام الأستاذة الجامعية التي تتحسر على ابنتها التي بلغت السادسة والعشرين وأصبحت كالزهرة الفواحة جمالا ورونقا وثقافة ومركزا.. وتتساءل هل زكمت الانوف فلم تعد تشم رائحة الورود. فلقد أردت أن أروي لهذه الام الطيبة الحنون قصتي مع تمنياتي لها بأن يقر الله عينيها بسعادة ابنتها قريبا بإذن الله. فأنا طبيبة في التاسعة والعشرين ولدت ونشأت في احدى دول الخليج حيث كان أبواي يعملان ودرجت بين ثلاثة أشقاء، اثنان منهم توءم ويكبرانني وشقيقة تصغرني. وبين والدين هما في نظرنا كل الحب والحنان. وقد التحق شقيقاي التوءم بالجامعة في مصر، وبعد عامين لحقت بهما أنا للدراسة بكلية الطب وبعد عامين آخرين عاد أبي وأمي لمصر والتحقت شقيقتي الصغرى بالجامعة. ومرت بنا السنون وتخرج الشقيقان وارتبطا بمن اختارهما قلباهما وسافر أحدهما وهو طبيب مع زوجته إلى لندن لإستكمال دراسته هناك، وتخرجت أنا وعملت طبيبة امتياز، ووجدتني شابة في الرابعة والعشرين من العمر.. جميلة ومثقفة ومن أسرة طيبة واجتماعية ومرحة لكني لم أرتبط بأي إنسان بعد لأن ظروف دراستي شغلتني عن التفكير في الزواج.. ثم جاءتني زميلة لي لتخبرني بأنها تريد أن تخطبني لإبن خالتها وحدثتني عنه طويلا.. وكان رأيي أنه من الضروري أن أراه ويراني هو اولا في لقاء عابر في مجال العمل حتى إذا تحقق القبول الشكلي، يقوم بزيارتنا في البيت وإذا حدث العكس لم يتعرض أحد للحرج لكنه لظروف عمله في محافظة أخرى لم يتم هذا اللقاء، وجاء هو لزيارتنا في البيت بعد فترة مع أخته وزميلتي للتعارف، ووجدته شابا وسيما أنيقا وتحدثنا في أمور عامة دون التطرق إلى موضوع الخطبة، وفي اليوم التالي فجرت زميلتي في وجهي قنبلة مفاجئة حين أبلغتني أنه قد أعجب بشقيقتي ويرغب في خطبتها هي وليس في خطبتي، وكانت شقيقتي في ذلك الحين في العشرين من عمرها وطالبة في السنة الثالثة بالجامعة، ولك أن تتخيل ما شعرت به في تلك اللحظة.. فلقد شعرت أنني كمن كان يسير في طريقه آمنا وفجأة تلقى صفعة قوية دون سابق إنذار! وعدت إلى البيت باكية.. ووقفت أمام المرآة وسألت نفسي لماذا لم أعجبه؟ ولماذا استحققت منه هذه الصفعة لأنوثتي، وبعد أن تمالكت نفسي وهدأت صارحت أبي وأمي وأختي بما حدث فوجم أبواي، وثارت شقيقتي وإنهالت عليه بالسخرية.. واحتضنتني وهي تقول لي «لعن الله من يفرق بيننا» وأصرت على الرفض وأيدها والداي في ذلك وأنتهت أولى صدماتي في هذا الموضوع.

وبعد أقل من عام تقدم شاب ممتاز لشقيقتي فرفضته بحجة أنه مازال أمامها عام دراسي آخر قبل أن تتخرج، وكاد أبي وأمي يوافقانها على ذلك. لكني كنت على يقين من أنها لا ترفضه بسبب الدراسة وإنما مراعاة منها لظروفي لأنني أكبرها بأربع سنوات ولم أتزوج، فبذلت كل جهدي لإقناعها بقبول هذا الشاب الممتاز حتى نجحت في ذلك وتمت الخطبة بالفعل وبعد ٨ أشهر فقط تم الزفاف وكنت أسعد الجميع به، وأنهيت أنا عام الامتياز بعد أن تجاوزت الخامسة والعشرين بعدة أشهر ولاحظت أن الحزن يخيم على أبي وأمي لبقائي معهما وحدي في البيت بعد أن تزوج من يكبرانني ومن تصغرني.. لكني واصلت حياتي وجاء الأحفاد ليملأوا البيت صخبا وضجيجا وضحكا وحبا وأصبحت عمة لثلاثة أطفال وخالة لطفلة واحدة كما أصبحت أيضا أتجاهل نظرات الإشفاق في عين أبي وأمي وأخوتي حين أستغرق في مداعبة الصغار، ولم يكن ذلك يعني أنه لم يتقدم لي أحد.. وإنما فقط أنه لم يتقدم لي الشخص المناسب حتى ذلك الوقت، وشغلت نفسي بعملي.. فعملت في عيادة طبيب أطفال كبير ودرست للماجستير ورشحني الطبيب الكبير بعد فترة للعمل في مستشفى خاص، وهناك تعرفت بزميل لي وتقاربنا كثيراً وتقدم لخطبتي وسعد الجميع به وبي ودامت الخطبة عاما كاملا وبدأنا الاستعداد للزفاف.. وعقدنا القران.. وفي الاسبوع التالي مباشرة للقران تعرض خطيبي لحادث سيارة أودى بحياته رحمه الله.. وانهرت انهيارا كاملا ودخلت المستشفى وأمضيت فيه شهرين حتى استعدت قواي ولملمت نفسي واستعنت بربي على أمري وخرجت من المستشفى إلى منزل أصهاري فاستقبلني والد خطيبي الراحل بكل الحب الحزين والمواساة وقبل رأسي ودعا لي ربه.. ثم جاءت والدته فاستقبلتني بكل النفور ولم تتردد في أن تقول لي إنها لا تريد أن تراني بعد ذلك أبدا لأنني كنت «شؤما» على ابنها الذي مات بعد عقد قراني عليه بأسبوع.. وقدرت أحزانها وغادرت بيتها مكتئبة وحزينة وعدت إلى بيتي فدخلت حجرتي واعتكفت فيها أسبوعا ثم انقطع خلاله عن التفكير في أمري ولا عن صلاة الاستخارة لأحاول الاهتداء إلى طريقي في الحياة، وبعد هذا الاسبوع غادرت الحجرة بقرار أبلغت به أبي وأمي وهو أنني أريد أن أسافر إلى بريطانيا لألحق بأخي الطبيب المقيم هناك وأستكمل دراستي بعيدا عن ذكرياتي الحزينة والامي القديمة، وأيدني أخي بحرارة في ذلك واحتجت إلى جهد كبير لإقناع أبي وأمي بما أردت، حتى تركاني أسافر وأبتعد عنهما وهما في شدة الجزع والإشفاق علي فسافرت وأنا في السابعة والعشرين واستقبلني أخي ورعاني كأنني طفلته ورعتني زوجته كما لو كنت طفلها الثالث وقررت أن أبدأ من جديد وأن أعتمد على الله الذي لا يغفل ولا ينام فبدأت الدراسة والعمل على الفور والتحقت بحلقة لتحفيظ القرآن الكريم بالمركز الإسلامي في لندن، والتحقت بدورة لتعليم العزف على البيانو وشغلت نفسي بكل ذلك واستغرقت فيه ورجعت إلى طبيعتي السابقة وفي أحد أيام العمل بالمستشفى البريطاني اختلفت مع إحدى الممرضات حول أسلوب علاج أحد الأطفال المرضى فأشارت إلى الطبيب الانجليزي الذي يرأس مجموعتنا وقالت لي انه الذي أمر بذلك.. وجاء هو على الصوت ووجدت نفسي في مواجهة معه وحين ثرت عليه رد علي بهدوء أو على الأصح بالبرود الإنجليزي المعروف قائلاً في حسم أنه ينتظرني في مكتبه بعد قليل، وانصرف، وتوجهت إليه في مكتبه فقال لي انني أخطأت بانفعالي انفعالا زائداً في هذا الأمر كما أنني قد تدخلت في تخصصه وأخطأت بأن ناقشت أسلوب العلاج أمام الطفل وأبويه مما قد يضعف ثقتهم بنا أو بالعلاج، وبعد أن أوضح لي أوجه خطئي اعتذر لي عما ضايقني به خلال الحديث وأنهى اللقاء، وهممت بالإنصراف من مكتبه فإذا به يقول لي بالعربية: مع السلامة! فعرفت في هذه اللحظة فقط انه مصري وأنني قد خدعت بملامحه الأوروبية فظننته انجليزيا وعلمت أنه مصري من أب مصري وأم بريطانية وأن شقيقته الوحيدة متزوجة كذلك من مصري، واقترب كل منا من الآخر منذ هذه اللحظة، وازددنا تقاربا واقترابا يوما بعد يوم حتى عرفت كل شيء عنه وعن والدته الإنجليزية المسلمة وعن تربيته هو وشقيقته، وانفجر ينبوع الحب في قلبي وفي قلبه في وقت واحد ففاض على الآخر وأغرقه وعدنا لمصر معاً لكي يخطبني ويتزوجني بعد أن تجاوزت الثامنة والعشرين من العمر، ولكي يذيقني كؤوس السعادة والهناء ويغرقني في بحر حبه وحنانه، ويعوضني عن كل الامي السابقة.. أنني اكتب لك هذه الرسالة من الإسكندرية حيث نقضي أنا وزوجي الحبيب اجازة سعيدة على أرض مصر لكي أقول له شكرا على كل ما أعطيتني من حب وحنان وعطاء.. وأدعو الله سبحانه وتعالى أن يبقيه لي شريكا وحبيبا وسندا في الحياة.. ولكي أخاطب الأم الطيبة كاتبة رسالة رائحة الورد وأطالبها بألا تشعر بالقلق على ابنتها لأنها قد تجاوزت السادسة والعشرين دون أن يتقدم لها الشخص المناسب، لأن الزواج رزق ونصيب وقد كتب لها عند مولدها الزوج الذي سيشاركها حياتها فإنني لم أكن لأتخيل ذات يوم أنني سوف أسافر إلى بريطانيا لكي التقي بمن يكمل معي مشوار الحياة كما أنه ليس المهم هو أن تتزوج الفتاة وإنما أن يكون من تتزوجه هو الاختيار السليم لها والذي يسعدها.. فلا داعي للقلق بشأن التوقيت.. والسلام عليكم ورحمة الله.

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

البداية الحقيقية لاتجاه المشاعر العاطفية لأي إنسان هي استثارة الاهتمام به. ولقد يتولد هذا الاهتمام بالطريقة الطبيعية أي بالتراكم الكمي للمشاعر من خلال التعامل الطويل معه كما تتجمع ذرات السكر المذاب في الماء ببطء حول الخيط المدلى في الكوب فتصنع جسما بللوريا صلبا يصعب تفتيته، وقد ينشأ هذا الاهتمام في حالات أخرى نادرة عن طريق الغمر الإنفعالي او الطوفان المفاجيء الذي يضع شخصا بعينه في بؤرة اهتمامنا فنرغب في التواصل معه ومن عجب أن بعض أجمل قصص الحب والزواج السعيد في الحياة قد بدأت بهذه الطريقة غير الطبيعية ليس بالإعجاب أو الانبهار اللحظي بالطرف الآخر وإنما بالضيق به.. أو الحنق عليه والرغبة في رد الإساءة إليه! وفي مثل هذه الحالات النادرة ينشغل المرء لفترة بالتفكير في رد الإساءة إلى من اقتحم بؤرة اهتمامه بالطريقة العكسية ثم لا يلبث بعد قليل أن يراجع نفسه ويتبين أنه ليس بالسوء الذي ظنه به في البداية بل أنه لا يخلو كذلك من بعض ما يستحق الاعجاب به من أجله فيبدأ في التماس الأعذار له ثم التبرير نيابة عنه. ثم ينتهي به الأمر إلى الإقتراب منه والارتباط به!

وهذا هو ما حدث بينك وبين زوجك الطبيب الشاب الذي وجدت نفسك في مواجهة حادة معه وانتهى الصدام بينكما باكتشاف كل منكما لمزايا الآخر والاقتراب منه والوقوع في غرامه.

وهي أيضا نفس البداية لإحدى أجمل قصص الحب العذري التي خلدتها لنا كتب الأدب وهي قصة جميل وبثينة! فلقد كانت بداية تعرفه بها صداما كهذا الصدام مع اختلاف الظروف والأزمان ولغة الحوار، وكان ميدان الموقعة في واد اسمه وادي بغيض جلس فيه جميل ذات يوم يستريح وأطلق ابله ترعى فجاءت فتاتان إحداهما طويلة وجميلة، ومرت الفتاة الطويلة بجوار ناقة لجميل فأفزعتها وكان به ميل للاندفاع والكبرياء فسب الفتاة سبابا مقذعا.. وفوجيء بها لا تهرول من أمامه خجلى كما تفعل غيرها من الفتيات وإنما تقف في ثبات وترد عليه سبابه مضاعفا! وبدلا من أن يغضب جميل ويزداد حدة وعنفا وجد نفسه يستطيب سباب هذه الفتاة ويعجب بجرأتها وشخصيتها وجمالها! وبعد أيام أخرى رآها في يوم عيد سافرة الوجه كعادة الفتيات في الأعياد حين كن يخرجن سافرات الوجوه عسى أن يلتقين بأزواج المستقبل فهام بها حبا وأنشد فيها أعذب الشعر وبدأت قصة الحب التي ذاعت في البادية حتى قرنت بين اسم الفتى والفتاة وصار يعرف بإسم جميل بثينة وتعرف هي باسم بثينة جميل، ولولا أن تقاليد العرب في ذلك الوقت كانت تجري على رفض أهل الفتاة مصاهرة من يشبب بابنتهم لتزوجا وسعدا بحياتهما إلى اليوم الأخير منها. ولقد استرجع جميل ذات يوم بداية قصته معها فأنشد

وأولُ ما قادَ المودةَ بيننا
بوادي بغيض يا بُثين سباب
وقلنا لها قولا فجاءت بمثله
لكل كلام يا بثين جواب!

والخلاصة هي أن الإنسان لا يعرف بالفعل أين ولا متى سوف يلتقي بأقداره في الحياة.. وهل سيكون ذلك في وادي بغيض أم في المستشفى البريطاني في عاصمة الضباب؟ وهل ستكون البداية اعجابا متبادلا أم صداما ونفورا كما حدث معك.. وكما حدث في قصص أخرى وهل الخير في تأخر أقدارنا عنا أم في تعجلها المجيء إلينا.. وكل ما نملكه هو أن نحيا حياتنا على نحو سليم.. وأن نشغل أنفسنا دائما بالشواغل المفيدة.. وبالسعي إلى تحقيق أهداف صغيرة نستطيع بالجد والكفاح نيلها كما فعلت أنت بعد محنتك الأليمة وسفرك إلى لندن وانشغالك بالدراسة والعمل وحفظ القرآن وتعلم البيانو لأن العقل البشري إذا خلا مما يشغله أستسلم لأفكاره الحزينة وهواجسه ومخاوفه واجتر آلامه واحباطاته واستغرق فيها والمهم دائما هو ألا نيأس أبدا من روح الله وألا نستسلم للقنوط. وألا نسمح للمرارة بأن تفسد علينا أرواحنا وأوقاتنا، وألا ننشغل بحظوظ الآخرين في الحياة ونعقد المقارنات بيننا وبينهم لأن لكل إنسان من حظه ما يسعد به ومن همه ما يشقيه.. وألا نقول مع الشاعر العربي متحسرين:

تقدمتني أناسُ كان شوطهمُ
وراء خطوي إذا أمشي على مهل

لأننا لا نعلم عن يقين هل الخير في مشينا الوئيد هذا أم في عدوهم هم على الطريق؟ وهل سعدوا بما حققوه أم شقوا به؟ وهل تأخر حظوظنا هذا حرمان أبدي لنا أم هو إدخار لسعادة مؤجلة سوف تجيء في الموعد المقدور فتمحو كل الآلام وتغمرنا بكل ما نتطلع إليه من هناء فنهتف مع أديب الفرنسية الأشهر فيكتور هوجو: ما الحزن إلا مقدمة للسرور!

والإيمان بالله والثقة في رحمته.. وسلام النفس والرضا بما أتاحته لنا الحياة هو بداية الطريق دائما يا سيدتي إلى السعادة والأمان فشكراً لك على رسالتك الجميلة هذه وعلى اهتمامك النبيل بمخاطبة الأم المهمومة بمستقبل ابنتها.. وأرجو لك ولزوجك الحبيب كل السعادة والأمان والتوفيق في الحياة بإذن الله.